

الباب الثاني

[قضية (اللفظ والمعنى)]

٢,١ المقدمة

واللفظ في أصل اللغة هو المصدر للفعل بمعنى الرمي، ويشمل ما لم يكن صوتا وحرفا، وما هو حرف واحد وأكثر، مستعملا كان أو مهملا، صادرا من الفم أولا، ثم خص في عرف اللغة بما صدر من الفم، من الصوت المعتمد على المخرج حرفا واحدا أو أكثر، مهملا أو مستعملا (الكفوي ١٩٩٢: ٧٩٥). وفي القاموس المحيط: "لفظ بالكلام نطق كتلفظ". (الفيروزابادي ١٩٩٠: ٩٠٢)

أما المعنى لغة: "فهو ما يقصد بشيء، ولا يطلقون المعنى على شيء إلا إذا كان مقصودا، وأما إذا فهم الشيء على سبيل التبعية فيسمى معنى بالعرض لا بالذات". (الكفوي ١٩٩٢: ٨٤٢).

فالمفهوم اللغوي للفظ أنه ما يتلفظ به الإنسان من الكلام، وللمعنى أنه المقصود باللفظ، فاللفظ والمعنى شرطه وجود القصد، إذ لو لم يعتبر القصد لا يسميها كلاما.

واللفظ في الاصطلاح هو "ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه، مهملا كان، أو مستعملا". (الجرجاني ١٩٩٣: ١٩٢) وعلى مصطلح أرباب المعاني: هو عبارة عن صورة المعنى الأول الدال على المعنى الثاني على ما صرح به الشريف الجرجاني (١٩٩٣: ١٩٢). حيث قال: "إذا وضعوا اللفظ بما يدل على تفخيمه لم يريدوا اللفظ المنطوق، ولكن معنى اللفظ الذي دل به على المعنى الثاني".

أما المعاني فهي الصورة الذهنية إذ وقع بإزائها الألفاظ من حيث إنها تقصد منه، وذلك ما يكون بالوضع، فإن كانت عبر عنها بلفظ مفرد سميها معنى مفردا ، وإن كانت عبر عنها بلفظ مركب سمي معنى مركبا. والمعاني: هي الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزاء الألفاظ والصورة الحاصلة في العقل، فمن حيث أن كانت تقصد باللفظ فسميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما. والمعنى هو المفهوم من ظاهر اللفظ الذي نصل إليه بغير واسطة (الكفوي ١٩٩٢ : ٨٤٢)

إن الحديث عن اللفظ والمعنى باعتبارهما من قضايا النقد والبلاغة ، يتكرر في مواضع مختلفة فهما من الموضوعات التي كثر الحديث فيها ، وقد اهتم النقاد والبلاغيون بها بصفة خاصة. واختلفوا شأن غيرهم في أيهما أفضل الألفاظ أم المعاني "وانقسموا إلى ثلاثة أقسام :

- أ- قسم اهتم بالألفاظ وفضلها على المعاني .
- ب- قسم اهتم بالمعاني وفضلها على الألفاظ.
- ج- قسم اهتم بالألفاظ والمعاني في آن واحد ، واعتبرها بمثابة الروح والجسد . " (بشير ٢٠٠٧ :

(١٦٩)

ف قيل عن المعنى أنها التأليف والنظم ، أي الصياغة بما تتضمنه من لفظ ومعنى وروي. وعن المعنى أنه الفكرة التي ينبني عليها البيت أو القصيدة ، على أنه ينبغي التحفظ والتحرز عند التعرض لهذه القضية في النقد القديم ، فليس المقصود باللفظ دائما المدلول المفرد للألفاظ .

فقول الجاحظ " بأن المعاني مطروحة في الطريق وأن المعول في البلاغة على الألفاظ، ووصفهم للصلة بين الاثنين كالصلة بين الجواري والمعارض، أو بين الجسم والروح والكساء والمزركش، أو بين القوالب وما

تخويه من مادة" (محمد زغلول سلام ١٩٩٨ : ٧٤) فأیما كانت هذه الأوصاف ففيها تصور لكل واحد منهما قائما بذاته أو ما يمكن قائمة بذاته مستقلا عن الآخر.

وهذا التصور لاستقلال كل منهما عن الآخر لا يتفق في اللفظ، فاللفظ في أصله رمز للمعنى فلا يقوم اللفظ وحده دون معنى، أي لا يمكن على صورة من الصور فصله عن مدلوله أو حتى تصور هذا الفصل ذهنيا كالفصل بين الروح والجسد، إذن فلا يمكن أن يكون النقاد قصدوا إلى الألفاظ المفردة حين خاضوا في قضية اللفظ والمعنى، بل اللفظ المقصود عندهم هو التركيب اللفظي في عبارة مفيدة أو جملة، والمعنى هو المعنى الذي تدل عليه تلك العبارة ، و"لما كان مجال بحث البلاغيين منذ القدم هو العبارة ، فكل ما يقال عن اللفظ والمعنى ينصرف إليها". (محمد زغلول سلام ١٩٩٨ : ٧٤-٧٥)

٢,٢ التعريف بقضية (اللفظ والمعنى)

ويصح الفصل على هذا الأساس بين اللفظ المركب في العبارة وبين المعنى المركب ، كذلك بمعنى ان نظم الألفاظ في العبارة بصورة أو بأخرى يغير المعنى ، وإن بقيت الألفاظ على حالها أو بالعكس، قد يمكن التعبير عن المعنى بصورة أو بأخرى من اللفظ ، أي قد يكون اشتراك بين عبارتين في معنى وإن اختلفا في اللفظ.

فالمعنى عند النقاد في القديم يأخذ مفهومين :

أ - المفهوم الأول: فيه المعنى بما يساوي الغرض أو الأفكار العامة مثل : العفة والكرم، والشجاعة والرحمة وما إلى غير ذلك .

وهذا المفهوم له أدلة من أقوال النقاد منها قول قدامة بن جعفر في معرض حديثه عما يباح للشاعر القول فيه حين يقول : " إن المعاني كلها معروضة للشاعر وله أن يتكلم منها فيما أحب وآثر من غير أن يحضر عليه معنى يروى الكلام فيه ، إذا كانت المعاني للشعر بمتلة المادة الموضوعية والشعر فيها كالصورة"

ثم يضيف أيضا: "وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والعفة وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة ، أن يتواحي البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة". (أبو كيشه ١٩٩٦ : ٣٥٣، ١٩٦)

ب- المفهوم الثاني : هو أن المعاني تنصب على دلالات الألفاظ وهي مركبة وعلى المعاني الناتجة من الصياغة ، والنظم التي تؤدي مجموعها ما يفسر الغرض والمعنى العام ، وهذا المفهوم هو ما يقصده عبد القاهر في قوله " لما كانت المعاني إنما تتبين بألفاظ وكان لا سبيل للمراتب لها والجامع شملها إلى أن يعلمها مامنع في ترتيبها بفكره إلا بترتيب الألفاظ في نطفه ، تجوزوا فكنوا عن ترتيب المعاني بترتيب الألفاظ". (أبو كريشه ١٩٩٦ : ٣٥٤).

ومن هنا نرى أن المعنى له مفهومان عند النقاد: مفهوم. بمعنى أنها الكلمات المفردة، ومفهوم. بمعنى أنها الكلمات في عبارة مركبة داخل صياغة ونظم، وهذا ما نجده عند عبد القاهر الجرجاني التلازم بين اللفظ والمعنى .

فالمعاني. بمعنى الأفكار والدلالات هي التي تقابل الألفاظ. بمعنى الصياغة والنظم، وهما متلازمان معا في الوجود والبحث في أيهما أفضل بحث لا جدوى منه لأنه لا يتصور انفصال أحدهما عن الآخر.

إن قضية اللفظ والمعنى التي أثير حولها الجدل ما هي إلا قضية بين المعنى بمفهومه العام وبين اللفظ والمعنى الصياغة والنظم ، وليست بين المعنى بالمفهوم الخاص وعبارته ، فلهذين المفهومين لكل من اللفظ والمعنى، لا نرى أن عبد القاهر وقع في تناقض حين مدح كل من اللفظ والمعنى مرة ودمهما مرة أخرى، فهو مدح اللفظ قصد الصياغة والنظام، وحين ذمه رأى أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي وتعديل مزاج الحروف، وحين مدح المعنى مدحه بالمفهوم الثاني الذي قدمنا تفسيره وحين قلل من شأنه فإن ذلك راجع إلى المفهوم الأول .

ويقابل اللفظ والمعنى في النقد الحديث الشكل والمضمون، فالشكل هو الصورة الخارجية لهذا الفن من وزن وموسيقى وصور شريعة وصياغة فنية وما يتحقق من خلال ذلك من جمال وانسجام . أما المضمون فهو "كل ما يشمل عليه العمل الفني من فكر أو فلسفة أو أخلاق أو اجتماع أو سياسة أو دين ... ومن هنا يكون المضمون أو المحتوى هو في غالب الأمر المادة الخام التي يستخدمها الأديب أو الشاعر". (أبو كريشه ١٩٩٦ : ٣٥٨)

فالمادة الخام توجد وإن لم يتحقق لها الشكل في صناعة ما، أما المعنى فغير ممكن التحقق لأن الفكرة لا توجد بالنسبة إلينا فكرة إلا إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ.

ومن هنا قضية اللفظ والمعنى أخذت جانبا مهماً من تفكير النقاد والبلاغيين وتولدت عنها قضايا فرعية كثيرة.

٢,٣ البداية لظهور قضية اللفظ والمعنى

لقد اهتم النقاد الأوائل بالمعاني عندما كان النقد فطريا يغلب عليه طابع تحكيم الذوق، لأن النقاد في تلك الفترة كانوا متأثرين بمقياس الدين والأخلاق ، والملاحظة أن النقد العربي تدرج على تقويم المعنى من خلال مقارنة ثلاثة أبعاد تنصب على القول الشعري المتحقق فعلا، وتفه بإزاء القول المثاني المتفق على النجاح الكامل في أداء المعنى من ناحية ، ومواصفات الموضوع الشعري الذي يتمنى إليه هذا المعنى من ناحية أخرى، وعلى ذلك تبدو جودة المعنى متعلقة بقدرة الشاعر على نحو تام بحيث تصبح هذه العبارة دون غيرها هي الأقدر على أداء هذا المعنى .

ولعل ما يفسر ذلك الحكم المطلق الذي يشيع في النقد العربي واصفا أحد الشعراء بأنه أشعر الناس في معنى معين، إن الحكم لا يخلع أفضلية مطلقة على الشاعر بقدر ما يشير إلى قدرته على إفراغ العبارة في قالب الموضوع وصياغتها صياغة نهائية ومتكاملة في التعبير عن هذا المعنى.

ومن هذا كله يشيع في خطابهم النقدي إتهام بعض النصوص الشعرية باختلال أداء علمية المعنى، "حيث يقصر (يتأخر) اللفظ عن المعنى بسبب عجز العبارة الشعرية على تحقيق الدلالة المقصودة ، أو حين لا يبين اللفظ المعنى بسبب عدم ملائمة الصياغة للمعنى المثالي المقصود ، نتيجة عجز الركائز الدلالية والصيغ الصرفية، والنظام التركيبي على الانتظام في علاقات تناسب مثالية تكشف على الدلالة المقصودة، أو حين تتضاءل دلالة المعنى بانشغال الشاعر بذاته عن تكريس القيم الاجتماعية الخلقية المتعارف عليها (الخويسكي و أبو شوارب ٢٠٠٣ : ١٩٠)

وأضافة إلى ذلك تطرقوا لنقد المعاني الجزئية من حيث المساوي والعيوب ، وكذلك من حيث الصدق والكذب ، وإيضا نقدها من حيث عجزها عن إتمام معناها .

٢,٣,١ نقد المعاني الجزئية

نرى أن الشعراء الجاهلون اهتموا بالمعاني في العمل الأدبي مبرزين المساوي والعيوب والأخطاء دون النظر إلى المحاسن والإيجابيات في العمل الفني نفسه أما حين يفاضل النقد بين عمليين فثمة بعض المحاولات القليلة التي تمت الموازنة فيها من حيث المعنى ، وهذه المحاولات اقتصرت على نقد المعنى في بيتين إلى قصيدتين طويلتين لشاعرين مختلفين، ومن هذه المحاولات: محاولة أم جندب في الموازنة بين شاعرين هما امرؤ القيس وعلقمة الفحل، حيث اشترطت شعرا يصفان فيه الخيل على روي واحد وقافية واحدة، فقال امرؤ القيس قصيدته التي مطلعها :

خليلي مرابي على أم جندب نقض لبنات الفؤاد المعذب

وقال علقمة قصيدته التي مطلعها

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا كل هذا التجنب . (حسين جمعة

٢٠٠٢ : ٣٧)

فقال أم جندب لزوجها علقمة : علقمة أشعر منك.

قال : كيف ذلك ؟

قالت : لأنك قلت:

فللسوط ألحوت وللحاق درة
ولزجر منه وقع أخرج متعب .(مصطفى محمد السيوفي

(٢٠٠٢ : ٦٢)

فجهدت فرسك بسوطك ومررت به بساقك، بينما علقمة فقال :

فادر كهن ثانيا من عنانه
يمر كمرّ الراح المتحلب . (حميد آدم ثويني ٢٠٠٤ :

(٢٦)

فأدراك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولا مره بساقه ولا زجره.

إن نقد أم جندب صدر جزئيا، لأنها سمحت لنفسها بأن تجتزئ معنى واحد من بيت واحد من كل قصيدة
وحكمت بين الشاعرين من خلال هذين البيتين فقط.

فهذا نقد معنوي جزئي معلل، حيث استخدمت لفظة وما تحمله من دلالة في معناها في غير موضعها، ولم
يتطرق طرفة لنقد القصيدة وإنما التفت إلى ذلك الخطأ المعنوي وصرح به، وهذا يدل على بصر طرفة بمعاني
الألفاظ ومواضع استعمالها، كما يدل على فطنته لهذا الخطأ الذي يعيب الشعر

ومن الأخطاء المعنوية كذلك التي وقع فيها الشعراء بسبب جهلهم بالحقائق التي تحدثوا عنها مثل قول زهير
بن أبي سلمى :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمر عاد، ثم تنتج، فتفطم

لأن المشؤوم هو قدار أحمر ، ثمود لا عاد.

والخطأ هنا في المعنى يعود إلى "جهل الشاعر بالحقائق التي يوردها ومن هنا كان احتياج الشاعر إلى الثقافة حتى لا"خطئ فيما يورده من هذا الحقائق.(أحمد أحمد بدوي ٢٠٠٤: ٣٧٠)

٢,٣,٢ نقد المعاني من حيث الصدق والكذب

ساد في العصر الجاهلي الاهتمام بنقد المعاني من حيث صدقها وكذبها ، وعدّها الجاهليون من الأسس الرئيسية التي يحكمون على الشعر من خلالها، واعتبروها أصلاً من أصول النقد، ونظروا إلى المبالغة انما تفسد المعنى وتخرج عن الصواب وتبعد عن الواقع وتنافي الصدق والشواهد على هذه القضية كثيرة منها:

مثال ذلك يروي أن رجلاً قال لزهير بن أبي سلمى أي سمعتك تقول لهرم :

ولأنت أشجع من أسامة إذ دعيت: نزال ولجّ في الذعر

"وأنت لا تكذب في شعرك فكيف جعلته أشجع من الأسد؟

فقال إني رأيته فتح مدينة وحده ، وما رأيته أسدا فتحها قط".(هاشم صالح مناع ١٩٩٤ : ٢٤)

وهذا المثال خير دليل على تأكيد وجهة نظر الشاعر الجاهلي إلى أن اعتماد المبالغة تخل بالمعنى وتفسده وتقوم بإخراجه من التقليد المتبع ، ولذلك لا بد للشاعر أن يبتعد من ذلك بقدر الإمكان .

وهكذا نرى أن عنصر الصدق من أهم العناصر النقدية التي ظهرت في العصر الجاهلي ، لأن أهم ما يمتاز به الشعر في تلك المرحلة الصدق والبساطة وعدم الغلو ، فلم يكن الإنسان حينذاك قد تعود على الكذب والمبالغة، لذلك ترفعت نفسه عن قبوله فأبى الإقرار به.

ومن هذا الباب قول مهلهل بن ربيعة :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تفرع باذكور (مصطفى محمد السيوفي

(٢٠٠٢ : ٥٤)

وقد قيل عنه أنه اكذب بيت قالته العرب ، لأن بين حجر وهي قصة اليمامة وبين مكان الواقعة مسافة عشرة أيام.

وإضافة إلى ما سبق يقرر النقاد أن الصدق في الشعر فضيلة لا تنكر، وعلى هذا فضل عمر بن الخطاب زهيرا جاعلا من فضائله أنه لا يمدح الرجل إلا بما فيه ، ويجدون الشعر الخالد هو ما وافق الواقع، ونجد ناقدنا كعمر يتخذ الصدق مقياسا للشعر ، فحين استمع إلى قول الخطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء نار تجد خير نار عندها خير موقد

"قال : كذب ، بل تلك نار موسى نبي الله عليه السلام". (أحمد أحمد بدوي ٢٠٠٤ : ٤٢٥-٤٢٧).

ومع أن تقدير النقاد للصدق نرى معظمهم لا يجعل الصدق - باعتباره مطابقا للواقع - مقياسا في تقدير الشعر ، ففي المدح والمهزاء والفخر لا يلزمون الشاعر بأن يقف عند الواقع ولا يتعداه بل يبيحون له أن يكذب وأن يأتي من الأحكام بما لا يتفق مع الحقيقة ، ولا يعينهم إلا صواب المعنى ، ولا يجدون مخالفته للحقيقة حاط من الشعر ولا نازلا بقيمته.

٢,٣,٣ نقد المعنى من خلال العجز عن إتمامه

ونعني بذلك أن ينظم الشاعر بيتا أو أبياتا يريد بها المديح أو موضوعا معينا ، فينتقد عليه ، ويرد لأنه جاء على عكس ما يريد ، كأن يكون مادحا وإذا به يهجو ، أو أنه يبدأ قوله وإذا به يعجز عن تكملة قوله وينقطع عن إتمام موضوعه ، ومن ذلك يروى أن النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر :

تراك الأرض إما مت خفا وتحي إن حييت بها ثقيلًا

فقال النعمان : هذا بيت إذا أنت لم تتبعه بما يوضح معناه كان إلى الهجاء أقرب منه لي المديح فأراد ذلك النابغة فعسر عليه ، فقال : "أجلني ، قال : احلتك ثلاثا فإن أنت أتبعته بما يوضح معناه فلك مئة من العصفير وإلا فضربة بالسيف أخذت منك ما أخذت". (هاشم صالح مناع ١٩٩٤ : ٢٧)

فأخبر النابغة زهير فخرجا إلى البرية ، وتبعهما ابن لزهير يقال له كعب ، فتجاوزا البيت مليا فلم يأتهما ما يريدان ، فقال كعب : " فما يمنعك أن تقول :

وذاك بأن حللت العز منها فتمنع جانبها أن يزولا

فقال النابغة ، جاء به وربُّ الكعبة ، لسنا والله في شيء قد جعلت لك يا ابن أخي ما جعل لي ، قال : وما جعل لك يا عم ؟ قال : مئة من العصافير نجائب ، قال : ما كنت لآخذ على شعري صفدا أي عطاء . فأتى النابغة النعمان بالبيت فأخذ مئة ناقة سوداء الحدقة". (هاشم صالح مناع ١٩٩٤ : ٢٨)

ويدل على أن الشاعر هنا رغم تمكنه من الشعر إلا أنه تعذر عليه إتمام معنى البيت الذي قاله الخليفة النعمان، وهذا ما يوضح عجز الشعراء آنذاك عن إتمام معنى شعرهم.

٢,٤ تطور قضية اللفظ والمعنى في القرن الرابع هجري

تطورت نظرة نقاد القرن الرابع هجري عما كانت عليه في الجاهلية ، فاهتموا باللفظ والمعنى واختلفوا حولهما ، وإذا كان الخطاب النقدي في هذا القرن لم يحسم الخلاف بصورة مباشرة وصريحة لمصلحة أي منهما ، فإن اثنين من القضايا الفنية التي شكلت قوام الخطاب النقدي في هذا العصر تفصحان عن عناية نقاد القرن الرابع هجري المستفيضة بالشكل الفني :

أولاهما: البديع ، حيث تبدو كثافة تناول البديع بألوانه المختلفة في كتابات هؤلاء النقاد شاهدا على وعيهم بأهمية الشكل الفني .

وثانيهما: السرقات ، إذ يكشف إجماع النقاد على أن الشاعر إذا أخذ المعنى فكساه لفظا من عنده أجود من لفظه كلما لما هو أولى به .من تقدّمه، مما يؤكد قناعتهم بحق الشاعر في استعمال معاني المتقدمين وتداولها، ز"من إقرارهم بأن الفضيلة منوطة بما تكسبه الصياغة الجديدة للمعنى المتداول من ثراء وجمال الأكثر فعالية فيما يخص هذا التقييم".(الخويسكي و أبو شوارب ٢٠٠٣ : ص١٢٣)

وما يؤكد ذلك ويكشف عنه درس مآخذ نقاد القرن الرابع هجري على الشكل الفني في شعر القرنين الثاني والثالث الهجريين، قد أظهروا عناية واضحة باللغة الشعرية من حيث سلامتها ودقتها ووضوحها وضعه في سياق النص الشعر لغويا أو إلى طبيعة توظيف الشاعر إياه ، فمما يرد إلى طبيعة اللفظ في ذاته ما قد يشوبه من ثقل وغرابة تؤديان إلى التنافر وخفاء الدلالة ، وضعف التواصل بين المبدع والملقي على نحو ما نجد في تعليق المزياني على قول أبي تمام :

وقد سدّ مندوحة القاصعا ء منهم وأمسك بالنفقاء

يقول "القاصعاء" حجم اليربوع الأول الذي يدخل فيه ، أو النافقاء موضع يرفعه من حجره فإذا أتى من قبل القصعاء ضرب النافقاء ففتحه ، " فلم نعب من هذه الألفاظ شيئا غير أنها من الغريب المصدود عنه ، ولا يحسن من المحدثين استعمالها لأنها لا تتجاوز بأمثالها ولا تتبع أشكالها فكأنها تشكوا الغربة في كلامهم" (الخويسكي و أبو شوارب ٢٠٠٣ : ص١٢٧)

ولكنهم لم يهملوا المعنى وعلى أساس هذا يبدوا نقدهم مستقرا على تحديد عيار المعنى من حيث محتواه الدلالي ، مؤكدا ضرورة اشتماله على قيمة نفعية ما بالنسبة للمتلقي مع المحافظة على التزام منطقية المعنى وانتظامه وقدرته على تمثيل الواقع ، ومن ثم رفضوا اضطراب المعنى وافتقاره إلى الدقة المنطقية.

وهؤلاء لم يهمل المعنى إذ يتزل عندهم في مرتبتين "مرتبة يكون المعنى فيها كالأمر البديهي يسميه المعنى المكشوف، إذ أن كل صياغة شعرية لا بد أن تحتوي معنى ، اما جوهر الشعرية فيمكن في الصياغة نفسها ، ومرتبة ثانية يتحقق فيها للمعنى اللطافة والاستغراب ، وهذا أمر زائد في حسن الصنعة والجودة ، ذلك أن الصنعة قائمة بنفسها مستغنية عما سواها". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ٨٦-٨٧)

ولقد أولى نقاد هذا القرن أيضا عناية يتساوى فيها اللفظ والمعنى ، حيث لا يزيد أحدهما عن الآخر ، فمن أوضح عيوب الشعر عندهم هو الختلال العلاقة بين الفكر والصياغة ، ومن ثم فهم يأخذون على الشاعر أن يترك اللفظ الذي لا يتم المعنى مما يؤدي إلى قصور اللغة عن أداء المعنى ، كما نجد في مآخهم على قول أبي تمام :

يدي لمن شاء رهن لم يذق جرعا من راحتك درى ما الصاب العسل

فيرى الآمدي أن لفظ البيت مبني على فساد لكثرة من الحذف ، "فقد حذف "إن" التي تدخل للشرط ولا يجوز حذفها ، وحذف "من" وهو الاسم الذي صلته "لم يذق" فاحتل البيت وأشكل معناه". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ١٩٠)

وفي هذا القرن ظهرت قضية اللفظ والمعنى عند أصحاب الموازنات ، كموازنة الآمدي بين البحري وأبي تمام مستعملا مبدأين في موازنة :

(١) حسن التأليف .

(٢) ودقة المعاني

فطريقة البحري الاكتفاء بحسن التأليف فقط مع قيامه طبعاً على معهود المعاني ، اما اعتبار لطيف المعنى ودقته مع عدم إيفاء التأليف شروطه فتلك طريقة أبي تمام ، ونجد ان فكرة التأليف الجميل ودقة المعاني ليست إلا امتداداً لثنائية اللفظ والمعنى ، "فهى تستفيد من فكرة الجاحظ عن المعنى ، ومن ثنائية ابن قتيبة ، وتعززها بفكرة قدامى عن التأليف ، مع حضور خفي لفكرة الصورة أيضاً". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ٨٥)

ومن هنا نرى أن موازنة الآمدي معللة مدروسة مؤيدة بالتفصيلات التي تعتمد المعاني والألفاظ والموضوعات الشعرية بفروعها المختلفة ، فلقد أظهر الآمدي الغلط في الألفاظ والمعاني ، وفي هذا الجانب جمع مقاله النقاد أو القراء عن أبي تمام وحاول أن يخفف الغلط عليه ، قال "في أنموذجات ذلك أنكر أبو العباس أحمد بن عبد الله على أبي تمام قوله:

هادية جذع من الأراك وما
تحت الصلابة منه صخرة جلس

وقال : هذا بعيد خطئه أن شمه عنق الفرس بالجذع قال : "جذع من الأراك " و"متى رأس عيدان الأراك تكون جذوعا ، أو تشبه بها أعناق الخيل . (حميد آدم ثويني ، منهج النقد الأدبي عند العرب ، ط ١ ، دار صفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٤ ، ص ١٢٣)

فالأخطاء التي عالجها الآمدي في شعر أبي تمام والتي عابه عليها ونفسها جدها عند البحتري إلا أنها بوجه أقل.

٢,٥ ظهور قضية اللفظ والمعنى عند البلاغيين

يبدأ البحث في قضية اللفظ والمعنى عند البلاغيين في القرن الرابع هجري ، بالحث على تجويد اللفظ أي مراعاة فصاحته وسلامته من العيوب التي تدخل على اللفظ المفرد ، كالغرابة والوحشية والسوقية والابتذال والالتباس ، ومن العيوب التي تدخل عليه مركبا وجود التنافر بين حروفه ، وعدم التلاؤم بين الألفاظ بعضها ببعض .

كذلك ينبغي أن يكون اللفظ حلوا بمعنى حسن مخرجه من اللسان، وعدوبة وقعه في الآذان لا أن يكون وعرا صعب المخرج مؤديا إلى إيذاء الآذان بخشونة صوته ، وعلى ذلك انقسمت الألفاظ والمعاني إلى طبقات فمنها الشريف ومنها الوضيع ، أو هي كما يقول بشر بن المعتمر : " ومن أراغ معنى كريما فليلتبس له لفظا كريما فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما". (محمد زغلول سلام ١٩٩٨ : ٨٥).

وليس مصطلح الفصاحة والبلاغة إلا مظهرين يدلان على حضور إشكال اللفظ والمعنى في كل معالجة نقدية عرفها البلاغيون العرب القدامى، ويزيد الامر تأكيدا على أن الفصاحة والبلاغة تشكلا مجالا معرفيا يهتم بعلاج النص عموما ، ومن هنا تظل الحدود التي تنضبط بها مفاهيم هذين المصطلحين لدى البلاغي او محكومة برأيه في اللفظ والمعنى .

ولعل محاولة كل من "أبي هلال العسكري" و "ابن سنان" يمثلان أنموذجين بارزين في هذا المعنى ، لأنهما من أبرز المحاولات التي عرفها القرنين الرابع والخامس هجري ، دون أن نغفل الإشارة إلى عبد القاهر الجرجاني الذي شكل رأيا خاصا في هذه القضية ، حيث توصل بدراسته المميزة إلى نظرية النظم التي اشتهر بها .

٢,٥,١ رأي أبي هلال العسكري (ت٣٩٥هـ):

تواترت نقوله عن السابقين وخاصة الجاحظ ، وابن قتيبة وابن طبابا ، فيما يتعلق بقضية اللفظ والمعنى ، إذ حاول إحداث نسق من انسجام بين آراء مختلفة ، ومن ذلك موقفه في عرض معاني الفصاحة والبلاغة، فقد اتجه إلى إثبات رأيين للفصاحة والبلاغة معا "اولاهما: ترجع الفصاحة والبلاغة إلى معنى واحد ، فكل منهما للإبانة عن المعنى ، وثانيهما : أن الفصاحة والبلاغة مختلفتان، فالفصاحة من تمام آلة البيان مما يجعلها مقصورة على اللفظ ، والبلاغة إنما هي إنهاء المعنى إلى القلب ، فهو مفهوم مقصورة على المعنى". (حسين جمعة ٢٠٠٢ : ٢٦)

وكذلك من محاولاته لعرض المعاني اللغوية للاصطلاحيين، فبعد التفرع في مجالات إطلاق البلاغة ومعانيها يحصر دلالتها فيالكلام باعتبار أنها سميت بلاغة إلى ينتهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه، ثم يخلص إلى الفصحة التي يتمحور معناها حول تعبير المتكلم عما في نفسه وإظهاره.

لينتهي أخيرا إلى تقرير هذه الخلاصة ، وهي أن الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما لأن كل واحد منهما في البيان عن المعنى والإظهار له، واختلف علماء البلاغة حول هذا المعنى الذي أشار إليه أبو هلال، فنجد ابن الأثير لا يوافقه كما ذكره في كتابه "المثل السائر " حيث اعتبر الفصاحة والبلاغة من واد واحد وغن كانت الفصاحة أعم فالبلاغة أخص ، لأن الفصاحة تشتمل اللفظ والمعنى و"البلاغة تشتمل المعنى وحده فهي اخص بالنسبة للفصاحة كالإنسان والحيوان". (محمد زغلول سلام ١٩٩٨ : ٢٨)

ويأخذ ابن الأصبع بالمفهوم السابق لكل من الفصاحة والبلاغة على اعتبار أن البلاغة مختصة بالألفاظ مركبة والفصاحة مختصة بالألفاظ عامة مفردة ومركبة ، فيقول في "باب الفرائد" من كتاب تحرير التعبير: "...وهو مختص بالفصاحة دون البلاغة ، لأنها عبارة عن إتيان المتكلم في كلامه بلفظة تنزل منزلة الفريدة من حب العقد ، وهي الجوهرة لا نظير لها تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته ، وجزالة منطقته، وأصالة عرييته ، حيث تكون هذه اللفظية إذا أسقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها". (محمد زغلول سلام ١٩٩٨ : ٢٨)

فالموقف النهائي لأبي هلال العسكري ، في أن البلاغة هي إيضاح المعاني وتحسين الألفاظ، وهذه النتيجة تحيلنا إلى إشكال اللفظ والمعنى أصل القضية وبمكنا التساؤل عن الصلة الجامعة في بحث معان الفصاحة

والبلاغة وثنائية اللفظ والمعنى، إلا أنه لم يستطيع أن يستغل هذا المدخل استغلالاً وافياً، و"لم يبن لكتابه على أساسه، فاجتهدت المحاولة وانفلت بقية الفصول عن هذا المدخل". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ٩٧ -

(٩٨)

ولقد طرح في هذا المدخل الإقرار بشمولية البلاغة للفظ والمعنى، إذ بدوا متطابقين لتختص البلاغة بالمعنى والفصاحة باللفظ، ثم تعود دلالة البلاغة لتستقر على عنصر اللفظ الذي هو من اختصاص الفصاحة، ويصبح شرط البلاغة في الكلام متحققاً في وضوح المعنى ووضوح اللفظ، وهذه النتيجة هي التي خولت للعسكري الانتقال إلى بحث اللفظ والمعنى باعتبارهما عنصري رئيسي للبلاغة، فإذا كان تحقيق البلاغة يقوم على توضيح المعنى في صورة مقبولة، فكان اشتراطه الخصوصيات في اللفظ والمعنى تتمحور حول الجودة والتحسين واكتفاءه غالباً غالباً في وصف المعنى للتركيز على الوضوح والبيان وهذا الأمر يتماشى مع الفكرة البلاغية.

وخلاصة القول إن العسكري لا يستأنف في بحث اللفظ والمعنى منهاجاً جديداً وإنما يلحمه بتصوره للبلاغة، وإن مسار بحث العنصرين عنده لا يستقصي أوجه ائتلافهما وتشاكلهما بقدر ما يسهل في تحديد أوصاف كل طرف، والمهم في الموقف هذا بأنه لا ينسى تكرار شرط الصواب في المعنى " ذلك أن الكلام إذا كان لفظه عذبا وسلسا، وسهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع النادر". (الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، ص ٩٩)

٢,٥,٢ راي ابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦ هـ):

فالإشكال عنده يأخذ مدى أكثر التواء وتعقيدا، بحيث حاول بطموحه استغلال النتاج السابق من مجال النقد والبلاغة ، ولو ظلت المسألة خلاصة لاجتهاد في حدود اللفظ لألتمس له عذر، ولكن محاولة تقسيماته المتعددة في إطار لفهم خاص لمصطلحي البلاغة والفصاحة أوقعه في حرج مما اضطر إلى تمديد مجال المعنيين ليستوعبا محصول التفريعات التي يشملها استقصاء حضور الألفاظ والمعاني أفرادا وتركيبا في الكلام، فهو عند تحدّثه عن الفصاحة يبدأ بتوضيح الفرق بينهما وبين البلاغة "وجعلها خاصة بالألفاظ، بينما جعل البلاغة عامة في الألفاظ والمعني". (شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف ، الطبعة الثامنة ، ص ١٥٣)

وعلى ذلك كان كل كلام بليغ فصيحاً ، ولم يكن كل فصيح بليغاً، وهو فرق اصطلاحى ظل شائعاً بعده عند الكثير من البلاغيين.

فإذا كان الاختلاف وارداً مع الخفاجي في فهمه للفصاحة والبلاغة والفواصل التي تجدد مجال كل نوع منهما، فإنه لا بد من الإقرار بأن تفريعاته المستقرئة للفصاحة والبلاغة محكمة بمقدماته وممتدة إلى أصوله النظرية، فقد خلص بعد دراسات متنوعة إلى ضبط العنصرين المؤسسين لحقل الفصاحة بقوله : " الفصاحة عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ١٠٤)

هذه النتيجة تخول لنا إدراك الضوابط التي كانت وراء تصنيفه للمواد الفظية والمعنوية التي ستظل مشدودة مما سبق من الأصول، بحيث كانت الاستقصاء مرتباً نحو علائق هذه المستويات في البنية العميقة ، إذ يبدأ ببحث موضوع الصنعة الذي هو اللفظ المفرد وشروط فصاحته وفصاحة التأليف بشمولها الألفاظ في أنواع مملوءة

تصوره بطبيعة العلاقة بين العنصرين ، ثم يجعل إلى مرحلة ثالثة المعاني المفردة كما أسماها ، أما فيما يتعلق بالصفات التي اشترطها في موضوع الصناعة، أو كما أسماه بالفصاحة في اللفظة المفردة وحدد لها مقاييس ثمانية وهي :

(١) أن يكون تاليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج وعلة هذا واضحة، وهي أن الحروف التي تجري من السامع مجرى الألوان من البصر ، ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة لقرب ما بينه وبين الأصوات ، وبعد ما بينه وبين الأسود.

(٢) أن يكون لتأليف اللفظة في السمع حسنا ومزية على غيرها ، وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة

(٣) أن تكون الكلمة غير متوعدة وحشية

(٤) أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية

(٥) أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة

(٦) أن لا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أوردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وإن كانت كملت فيها الصفات الأخرى

(٧) أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، فإنها إذا زادت على الأنموذج المعتادة المعروفة قبحت وخرجت من وجوه الفصاحة

(٨) أن تكون الكلمة مصغرة في موضع ما عبّر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما جرى مجرى ذلك مقل.

وهذه المقاييس تجاوزت المعهود من شروط الفصاحة في المفرد وكانت موضع انتقاد قديما وحديثا، غير أن ربط المعنى فيه باللفظ حول محور عمودي إن صح الوصف هو الذي جعله يخص هذا القسم بوف الفصاحة والبلاغة وتأسيسا على ما سبق يمكننا إدراك قوله مفرقا بين الفصاحة والبلاغة : "إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني ، ما يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل على مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ ، وليس كل فصيح بليغ كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه". (الأخضر جمعي ٢٠٠١ : ١٠٩)

فالفصاحة عنده إذ تشتمل المفرد والؤلّف والبلاغة تتعلق بالمعاني المفردة، ويشتركان في قسم شروط البلاغة والفصاحة ، وهي الكناية والإيجاز والتتبع والتمثيل ، ووضوح العبارة عن المعنى ويسميه أيضا ما تشترك فيه اللفظ والمعنى، وهذا التداخل بين البلاغة والفصاحة في الألفاظ المؤلفة هي التي تجعل التمييز بينهما صعبا ، باستثناء جوهر الفرق بينهما الكامن في اختصاص البلاغة بالمعاني المفردة ، وبذلك اعتبر الخفاجي عمله مسحا لخلق الفصاحة والبلاغة سويا مع مقتضيات الفصل بينهما، علما بأن الفصاحة شطر من شطور في البلاغة، إذا البلاغة تشملها وزيادة ، "وقد خالف الخفاجي أبي هلال العسكري في كتابه " سر الفصاحة " فهي عنده تشمل حسن اللفظ وحسن المعنى معا". (حسين جمعة ٢٠٠٢ : ٣٠)

فالفصاحة كما قال الخفاجي نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة وكلها تكسبها جمالا وبهاؤ وتأثيرا في النفس ، وهذا ما جعله يحدد فصاحة اللفظ المفرد في إطار جمالية الكلمة واستخدمها.

٢,٦ ظهور مذاهب في قضية (اللفظ والمعنى)

اللفظ والمعنى من القضايا المهمة في النقد العربي وهما ركنان أساسيان من أركان القصيدة ، وقد شغل بها النقاد والبلاغيون كثيرا ، فكانتا من أعقد القضايا النقدية قديما ، وأكثر قضايا النقد اضطرابا على الرغم من عناية أولئك النقاد بها ، وقد تعرضوا لها في البلاغة عامة غير أنها انعكست على الشعر فأصبحت من المسائل الكبرى ، إذ قامت معركة في تحديد دور كل منهما ، وتقويم شخصية كل منهما في السيادة والأولوية.

ويمكن حصر أبعاد هذه المعركة في ثلاثة فرق :

١- فريق أرجع مقومات العمل الأدبي إلى المعنى وحده مغفلا شأن اللفظ ، فجعلوا للمعنى المكانة

الأولى في النص الأدبي ، ويأخذ البلاغيون في الغوض فيه وتتبعه والبحث عنه، ويضعون على رأس هذا

الفريق أبو عمر الشيباني و ابن المعتز.

٢- فريق أرجع مقومات العمل الأدبي إلى اللفظ مغفلا شأن المعنى ، فيجعلونه وحده هدف التبليغ

ويدعون البلاغيون إلى العناية به وحده ، ويمثلهم الجاحظ ، وابن خلدون ، وأبو هلال العسكري وابن

سنان الخفاجي ، وقدامة ابن جعفر .

٣- فريق آخر اتخذ موقفا معتدلا اهتم بالألفاظ والمعاني معا وفي آن واحد ، "واعتبرهما بمثابة الروح

والجسد ، ويمكن أن نطلق على هؤلاء باسم المدرسة التوفيقية (بشير خلدون ٢٠٠٧ : ١٦٩) ويمثلهم

ابن رشيق ، ابن قتيبة ، وعبد القاهر الجرجاني ، وابن طباطبا.

وسنصنف هذه الآراء على الوجه الآتي:

٢,٦,١ مذهب أنصار المعنى :

فمن البلاغيون من يؤثر المعنى على اللفظ فيطلب صحته ،ولا يبالي إن وقع في قبح اللفظ وخشونته، فأصحاب المعاني هم الذين يفصلون أن ينقلوا آثار عقولهم أكثر من اهتمامهم بالشكل ليستفيد المتأمل ولذلك "طلبوا المعاني المعجبة من خواص أماكنها وانتزعوها جزلة عذبة حكيمة ظريفة أو رائقة بارعة ، فاضلة كاملة لطيفة شريفة زاهرة فاخرة ، وجعلوا رسومها أن تكون قرينة التشبيه لائقة الاستعارة، صادقة الأوصاف ، خلاصة الاستعطاف ، عطافة لدى الاستنفار، مستوفية لحظوظها عند الإسهام ، من أبواب التصريح، والتعريض، والإطناب ، والتقصير ، والجد، والهزل ، والخشونة ، والليان والأباء، من غير تفاوت يظهر من خلال إطباقها ولا قصور ينبع من أعماقها...الخ. (إحسان عباس (دون تاريخ) :٤١١)

ونفهم من هذا أن بعض النقاد كانوا يميلون إلى المعاني ، فطلبوا المعاني المعجبة والشريفة ، الزاخرة المستوفية لحظوظها، ولا تقتصر عن أدائها المعنى أو العجز عن إتمامه.

ويبدو أن أبا عمر الشيباني - فيما يروي الجاحظ - كان لا يحفل إلا بالمعنى، ويفضله على اللفظ، متى كان المعنى رائقا حسنا ظل كذلك في أية عبارة وضع فيها، ويعنى الجاحظ عليه أنه استحسنت بيتين لمعناهما على حين ليس عليها مسحة أدبية سوى الوزن وهما :

لا تحسبن الموت موت البلى فإنما الموت سؤال الرجال

كلاهما موت ، ولكن ذا أقطع من ذاك لذل السؤال

بلغ من استحسان أبي عمرو لهذين البيتين حين سمعها في المسجد يوم الجمعة، إذ كلف رجلا حق أحضر دواة وقرطاسا حتى كتبهما له، ولذلك " رأي أبو عمر الشيباني -على هذه الصورة -مطابق لما حاكاه أرسطو عن "السوفسطائي بریزون" من أنه لا حسن ولا قبيح في اللغة، ففي أي الكلمات وضعت الفكر فالمعنى سواء، ولعل أبو عمر الشيباني أعجب بالبيتين لما اشتملا عليه من حكمة فيكون بذلك ممثلا لطائفة من البلاغيين والنقاد العربية ، ولعوا بالحكم والأمثال ، غير مبالين برونق العبارة وجمال الصياغة. (هلال ٢٠٠٥ : ٢٥٤)

ومن هنا يتضح أن أبي عمر اهتم بالمعاني في العمل الأدبي مغفلا شأن اللفظ ، فجعل له المكانة الأولى. وكذلك الأمر بالنسبة لأبي إسحاق إبراهيم الحصري وأبو عبد الله محمد بن شرف، فقد اكتفوا بإشارات عبارة دلت على وجهة نظرهم في هذه القضية.

فقد أورد الحصري فقرة موجزة للغاية لم يحدد فيه موقفه بوضوح بأن المعاني لا يمكن حصرها لأنها ممتدة إلى غير نهاية أما أسماؤها فيمكن لنا حصرها لأنه معدودة خلاف المعاني، فالحصري فرق بين الألفاظ والمعاني ويرى أن الإبداع في فن الأدبي يتوقف على المعاني ، ويعتمد عليها ، لأنها تتجسد باستمرار فهي مبسطة إلى غير نهاية.

فالمعنى تتفاوت تبعا للبساطة أو التعمق في تفكير كل شاعر ، فمن كان من الشعراء نظره بعيدا وخياله مجنجا يستطيع أن يأتي بالعجب العجائب ، ومن كان تفكيره محدودا جاءت معانيه عادية لا خير فيها ، أما الألفاظ فهي محدودة ومعروفة ومحصورة يستطيع كل واحد أن يطلع عليها ويستعملها في كلامه ، فالمعاني تتفاوت من شاعر إلى آخر بحسب قدرة الشاعر على التفكير، فمن كان نظره بعيدا يستطيع أن يأتي بالمعاني

الجيدة ، على خلاف من كان تفكيره محدودا تأتي معانيه عادية ، فالحصري هنا خالف الجاحظ وخالف الكثير من معاصريه ، كعبد الكريم النهشلي.

ونقف بعد ذلك على فقرة لابن شرف تعرض فيها إلى هذه القضية ، حاول أن يقف موقفا وسطا لكننا نستشف منه أنه كان يهتم بالمعاني أكثر من اهتمامه بالألفاظ ، فكان يرى أن هناك شعرا يملأ لفظه المسامع بفخامة مبناه وقوة ألفاظه وقعقتها ، ولكن مع ذلك يكون خاليا من المعاني. (هلال ٢٠٠٥ : ١٧٤)

إضافة إلى البلاغيين هناك كثير من الشعراء ممن احتفل بالمعنى دون اللفظ كابن الرومي والمتنبي ومن شاكلهما ممن يطلبون للمعنى ، ولا يبالون أحيانا من هجنة اللفظ وقبحه وخشونته. لكن جل من حفلوا بالمعنى كانوا يقصدون إلى تقديمه على الألفاظ دزن أن يغفلوا من شأنها فهم يتزلزها في مترلة تلي مترلة المعنى ، ولذلك يشبهون الألفاظ بالمعرض أو ثوب الجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض ، وكم من معنى حسنه قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه ، وكم من معرض حسنه قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه ، والمدار عند هؤلاء أن تكون استفادة المتأمل للكلام ، والباحث عن مكنونه من آثار عقله أكثر من استفادته من آثار قوله أو مثله ، وهم أصحاب المعاني فطلبوا المعاني المعجبة الجزلة كما سبق الذكر .

وهذه المعاني ، وإن كان الاوائل قد سبقوها إلى أكثرها واهتموا بالمعاني دون الألفاظ فكان النقد منصبا فقط عليها كما رأينا سالفاً - فلا زالت أمام المحدثين مجالا واسعا للإبداع فيها.

ومنهم الآمدي الذي امتدح أبا تمام فقالوا: "... إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقويم ألفاظه ، على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة ، وأنه إذا لاح له المعنى أخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف أو

قوي " (هلال ٢٠٠٥ : ٢٥٤). هذا يعني أن الآمدي اهتم بالمعنى وتقويمه أكثر من اهتمامه باللفظ، فكان يعبر على المعنى بأي لفظ سواء كان ضعيف أم قوي لأن المهم عنده هو المعنى.

ثم يعقب على هذا القول بقوله " وإذا كان هذا هكذا ، فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الأدباء وطلبهم ، وهو لطيف المعاني ، بهذه الحالة دون ما سواها فضل امرؤ القيس ، لأن الذي في شعره من رقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء من الجاهلية والإسلام ، حتى أنه لا تكاد تخلو قصيدة من أن تشتمل من ذلك على نوع من الانواع ولو لا لطيف المعاني واجتهاد امرئ القيس فيها وإقباله عليها لم تقدم على غيره ". (هلال ٢٠٠٥ : ٢٥٥)

ومن هنا يتضح أن أبي تمام فضل امرأ القيس لأنه كان في شعره لطيف المعاني والتشبيه ، ولأنه أبدع في الحكمة ، ولولا ذلك لما تقدم على غيره من الشعراء ، ويذكر كذلك من فضائل أبي تمام أن معانيه لو ترجمت إلى لغة أخرى لما فقدت قيمتها.

ونجد الشاعر والناقد عبد الله بن المعتز يميل إلى المعاني ، ويتضح ذلك من خلال كتابه البديع . فإذا تصفحناه وجدناه يخصص كتابه هذا للرد على أصحاب مذهب الصنعة الشعرية، ذلك المذهب الذي ظهر بظهور بشار بن برد ، والذي نما وتطور حتى أصبح علامة مميزة لشعر أي تمام الذي تبلورت عنده الصنعة الشعرية وعده النقاد إماما لهذه الاتجاه الشكلي في الفن.

ألف ابن المعتز كتابه البديع على أثر الضجة التي أثارها أصحاب المذهب الجديد مدعين أنهم قوما أبدعوا في الصياغة الشعرية والتجويد الفني ، وانهم حققوا ما لم يحققه القدماء في استمال الجاز والاستعارة ، ومحسنات القول من تجنيس وثورية وطباق وغير هذا وذاك من انواع البديع المعروفة. ولقد أراد ابن المعتز أن يثبت

بكتابه هذا أن في شعر الأوائل وفي القرآن الكريم ، وأحاديث النبوية صلى الله عليه وسلم هذه الشاعات كثيرة التي يزعم الحدثون انهم أصحابها ومختعوها ، وكل ما في الأمر أن الأوائل قد وقعوا عليها بطريقة تلقائية عفوية ، وأن الحديث قد جذبها وقصدوا إليها قصدا .

وعلى الرغم من أن الناقد كان له هدف نقدي هام في كتابه، فقد جعل أساسا له تلك الدراسة المقارنة بين الحديثين والقدماء ، وعلى الرغم مما أضافه ابن المعتز من إضافات هامة في المصطلحات البلاغية التي ذكرها وجمعها في كتابه ، فإن فكرة الفصل بين الشكل والمضمون ، أو بين اللفظ والمعنى كانت سائدة على تفكيره ن فهي في الفصل الذي تعرض فيه (لحسن الشعر الكلام) قد ذكر كثيرا من أبواب البيان والبديع واعتبرها حلية يجمل بها الشعر ويحسن، واعتبر الألفاظ والصور الفنية شكلا من أشكال التزيين للشعر ، ومن ثم كان المعنى عنده هو الجوهر والألفاظ وسائل من التزيين والتعميق.

والحقيقة أن ابن المعتز على الرغم مما أضافه من دراسة نافعة في مجال الصنعة الجديدة، كان ما يزال متأثرا بعبارة الجاحظ القديمة التي جعلت الشعر صياغة وضربا من النسيج وجنسا من التصوير، ولم يستطع كتابه أن يقدم إلينا مفهوما محددًا لعملية الخلق الأدبي التي يذوب فيها الشكل الخارجي في المضمون ذوبانا كاملا، كما لم يستطع وهو بصدد دراسة للصور العرية وهذا هو موضوع كتابه الأساسي ، لأنه يوضح لنا العلاقة الحية بين التعبير والجمال، أو ما يسمى بالتعبير العاري والتعبير المزخرف. (العشماوي ٢٠٠٧ : ٢٦١ -

(٢٦٢)

ولقد بدا من دراسته أن يفصل بينهما وذلك حين جعل ذهن ينصرف إلى أن الصورة الخارجة للشعر ضرب من الصنعة والتزييق ، وليس جزءا يتجزأ من المعنى.

ويقوم في وجه هذا الرأي آخرون يرون أن الصياغة المقوم الحق للأدب، فكما أن القاص لا بد أيسير على نهج خاص في سرد حوادثه كي تستكمل شرائط قلبها الفني العام ، كذلك الكاتب والبلاغيين فيما يعالجان من أغراض ، ولا بد أن تستوفي في الجمل والعبارات خصائص الصياغة الفنية ليدخل الكلام في باب الأدب. قد تكون الحقائق متفرقة في العلوم المختلفة يقولها كل دارس ، وقد تكون المعاني جارية على ألسن الناس يرددها العوام وغيرهم ، ولكن لا يستطيع ان يدخلها ميدان الأدب والبلاغة سوى والبلاغيين الأدباء بما يراعون من جمال التعبير في الجمل من قواعد الفن في الأجناس الأدبية ، ولهذا نادى جمع من النقاد والبلاغيين العرب بأن قيمة الألفاظ فوق قيمة المعاني.

أ- الجاحظ

لعل الجاحظ هو أول من أثر اللفظ بحيث اعتبر الألفاظ هي أساس في تقدير القيمة الفنية للعمل الأدبي ، لأن كان يهتم كثيرا بجمال الأسلوب والصياغة بما يكسوها من حلل للألفاظ ويعتبر أول من ألقح شرارة هذه المعركة تعلقا منه بمذهب الصيغة وتعصبا للفظ، ومشايعة للصناعة سواء فيما قرره ورآه ، أو بما نقله وأقحمة من آراء البلاغيين والأدباء والنقاد.

وهو في كل ذلك يصنع الأناقة والجودة والجمال في الألفاظ، فالمقياس عنده القيمة الأدبية ويتقوم ذلك في جزالة اللفظ وجودة السبك ، وحسن التركيب.

يرى الجاحظ بأن أبا عمرو الشيباني في رأيه الذي أوردناه فيما سبق ، وذهب الشيخ إلى استحسان المعاني "...المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن والتميز اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة ، وضرب من الصنع، وجنس من التصوير ". (أحمد أحمد بدوي ٢٠٠٤ : ٣٥٦) فكما نرى يجعل الشأن كله للصياغة اللفظية وجودة السبك.

وهذا ما يؤكد أنه من أنصار اللفظ، فقد دعا إلى اختيار اللفظ، ومناسبة المعنى المراد التعبير عنه، وسلامة المخارج، وعدم تنافر أصواته ووا ابتذاله، ومناسبة لما جاوره في السبك وتآلفه معه وفي عبارة الجاحظ على شهرتها وكثرة تداولها بل تأثيرها الشديد فيمن جاءوا بعد جاحظ من النقاد والبلاغيين غموط واضحة فهي لم تضع التحديد الصحيح لمفهوم المعنى عنده وفصلت فصلا صارما بين المعنى واللفظ. أما عن غموض العبارة فنأشئ من ان الجاحظ قد نفى عن المعنى كل أهمية، بأن جل المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، ثم عاد فأثبت الحسن للصياغة.

إن الجاحظ اهتم بالفصاحة اهتماما شديدا، فدراسة للألفاظ من أوسع ما وصل إلى العصر الحاضر من عهده، فقد تكلم على تنافر الحروف ، وملائمة الألفاظ وما تماثلتهما، فرأى أن اللفظ لا ينبغي أن يكون عاما وساقطا سوقيا، فكذلك يجب ان لا يكون غريبا وحشيا.

ونرى أن هناك أسباب كثيرة جعلت الجاحظ لا يتبنى نظرية التقديم المعنى عن اللفظ منها: أن عنصر الجاحظ كان يشهد بوبر حملة عنيفة يقوم بها البلاغيون والنقاد لتبيان السرقة في المعاني بينهم، ولا نستبعد أن يكون الجاحظ قد حاول الرد على هذا التيار مرتين مرة: بأن لا يشغل نفسه بموضوع السرقات كما فعل

معاصروه، ومرة بأن يقرر أن الأفضلية للشكل لأن المعاني قد مشترك بين الجميع الناس ، وهناك سبب قائم في طبيعة الجاحظ نفسه، فقد كان رجلا خصب القريحة لا يعيبه الموضوع ، ولا يثقل عليه المحتوى أيّا كان لونه.

وأخيرا، نرى أن الجاحظ بالغ في العناية الشكل ، فأصبح الشعر عنده صياغة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير ، وقد تطرف الجاحظ في هذه النظر كل التطرف ، حتى كان الحكم على الشعر عنده أن يكون حكما على الجمال الخارجي فيه ، دون النظر إلى المضمون الذي كان ينعدم عنده، فأصبح الشكل بذلك مقياسا للبراعة.

ب - ابن خلدون

قد تطرف ابن خلدون في هذا الرأي كل التطرف ، - إذ رأى نتيجة الاحتفال بالصياغة - أن العبرة بالألفاظ، والألفاظ هي التي تطلعنا على المعاني فهي الدليل عليها ، وبدون الألفاظ لا يستطيع استجلاؤها، وهو بهذا يردد " رأي الجاحظ، وإن كان قد ذهب إلى أبعد منه، إذ أن الجاحظ لم يقل بتبعية المعاني للألفاظ، فابن خلدون يرى أن المعاني متيسرة لكل إنسان ، فلا يحتاج إلى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة". (هلال ٢٠٠٥ : ٢٥٧) فالمعاني سهلة وموجودة عند كل لإنسان ، وفي كل فكر، عكس الألفاظ فهي غير متيسرة وتحتاج إلى صناعة.

وعلى الرغم من تطرف بعض من نادوا بهذا الرأي في قولهم أن المعاني مطروحة في الطريق يعرفها كل الناس، فإنهم على جانب كبير من الصواب في اهتمامهم بالصياغة ، إذ هي أساس يجب أن يتوافر في كل ما يصح

أن نطلق عليه أدبا، وقد كان اهتمام كثير من البلاغيين العرب بأمر الصياغة كفاء لاهتمامهم بالمعاني الجزئية والوجوه البلاغية ، ونتيجة لانحصار جهدهم في فهم التجديد في هذه الحدود لم يكادوا يتجاوزونها.

ت- قدامة بن جعفر

كان يرى قدامة بن جعفر أن أحسن الكلام يرجع إلى اللفظ أكثر ما يرجع إلى المعنى ، ومما يؤكد جنوحه إلى الشكل جنوحا ظاهرا في كلامه عن البلاغة إذ يقول "وأحسن البلاغة الترصيع والسجع ، واتساق البناء، واعتدال الوزن، واشتقاق لفظ من لفظ وعكس ما نظم من بناء، وتخليص العبارة بألفاظ مستعارة، وإيراد الأقسام موفورة بالتمام ، وتصحيح المقابلة بمعان متعادلة، وصحة التقسيم بإتقان النظم، وتلخيص الأوصاف بنفي الخلاف، والمبالغة في الوصف بتكرير الوصف وتكافؤ المعاني في المقابلة والتوازي، وإرداف اللواحق ، وتمثيل المعني...فهذه المعاني مما يحتاج إليه من بلاغة المنطق ولا يستغنى عن معرفتها شاعر ولا خطيب".(محمد غنيمي هلال ٢٠٠٥ : ٢٦٠-٢٦١-٢٦٢)

ومن يتبع هذه الأوصاف التي وصف بها قدامة، يستطيع أن يدرك على الفور مدى اهتمامه بالشكل الخارجي والتزويق والتنميق اللذين هما عنده عماد البلاغة وسر الفصاحة. ومما يؤكد اهتمامه باللفظ هو كلامه عن المبالغة في الشعر بلا ضير على الشاعر فيما يسوق من معان رفيعة كانت أم ضعيفة ، وحميدة كانت أم ذميمة ، ويمثل برداء الخشب بذاتها لا عيبا وإنما الذي يعيب النجارة صنعها أو شكلها الخارجي، وفيه كذلك تعليق الحكم على العمل الفني بشكله الخارجي الذي هو عند القدامة شيء آخر غير مادة الشعر باعتبارها مجردة لا حياة فيها ، وإنما الحياة كلها في الصورة الخارجية للعمل الفني.

ث - أبو هلال العسكري

ونجد في أواخر القرن الرابع الهجري أبو هلال العسكري حيث تبع الجاحظ في ميله للألفاظ إذ يقول: "ومن مدار البلاغة على تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة والأشعار الرائقة ، ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعه، ورونق ألفاظه وجودة مطالعه، وحسن مقاطعه وبديع مباديه، وغريب منابيه على فضل قائله، وفهم منشئه وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني". (إحسان عباس د.ت : ٨٧)

ومن هنا نرى أن أبا هلال العسكري يكاد لا يختلف كثيرا عن الجاحظ في تصوره للعمل الفني بأن المعاني مطروحة لأنها معروفة، واللفظ يحتاج إلى صناعته.

ج - ابن سنان الخفاجي

فنتقل من أبي هلال إلى ابن سنان الخفاجي فنراه متأثرا بما كتب الجاحظ من قبله في محاسن اللفظ، وتأثرة أيضا بقدامة بن جعفر ، وإن اختلف معه في بعض الجزئيات فهو ما يزال يذكر ما ذكره قدامة من قبله بأن الشعر صناعة كالنجارة. ومن هذا نرى أنه من أنصار اللفظ.

وهكذا عني البلاغيون بحسن اللفظ وجودة السبك، ويكاد ينحصر جهدهم في هذا الميدان ، وذلك أن جل الأدباء والبلاغيون رأوا في الافتنان في الجلبة اللفظية المجال الأكبر للتجديد، إيماناً منهم بأن الأولين استغرقوا المعاني وأتوا على معظمها، وإنما يحصل المحدثون عن البقايا تركت رغبة عنها ، واستهانة بها، أو لبعد مطلبها،

وهذا مجال الإبداع الذي ولع به هؤلاء المحدثون وتبعهم البلاغيون لكن أكثر دعاة اللفظ وترجيحه على المعنى لم يغفلوا المعنى إغفالا تاما.

٢,٦,٣ فريق المراوحين بين اللفظ والمعنى:

ويقوم في وجه هذين الرأيين رأي ثالث، باعتبار أن اللفظ والمعنى شيئا واحدا ، ومن أقدم النصوص على ذلك صحيفة بشر بن المعتمر المعتزلي ويتضح فيها بترك التوعر والتكلف، إذ يقول "التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيه ويشين ألفاظك، ومن أراد معنى كريما فليلتبس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حققها أن تصوفهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس إظهارهما ، وترهن نفسك بملا بستهما وقضاء حقهما".(بشير خلدون ٢٠٠٧ : ١٧١)

ومن هذا النص نفهم أن التوعر يؤدي إلى التعقيد ، فالمعنى الكريم والشريف يستلزم لفظهما أن يكونا كذلك، ومن حقهما معا الصيانة.

وأولى المنازل في رأيه " أن يكون لفظك رشيقا عذبا ، وفخما سهلا ، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفا، أما عند الخاصة أن كنت للخاصة أن كنت للخاصة قصدت، وأما عند العامة أن كنت للعامة أردت والمعنى ليس يشرف بأن يكون من المعاني الخاصة ، وكذلك ليس يتصغ بان يكون من معاني العامة، وإنما مدار الأمر على الصواب ، وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال ، وكذلك اللفظ العامي والخاصي ".(هلال ٢٠٠٥ : ٢٦٣)

فمن المراءحين بين اللفظ والمعنى، نجد ابن قتيبة يجمع بين اللفظ والمعنى ويسوي بينهما، وابن رشيق وابن طباطبا يعتبر أنهما شيء واحد، أما عبد القاهر فقد قال بالعلاقة القائمة بينهما.

أ- ابن قتيبة

هو أول من سوى بين اللفظ والمعنى ، وبذلك يخالف الجاحظ، فرأى البلاغة لا تقتصر على اللفظ فقط، فقد تكون فيه، وقد تكون في المعنى، أو فيهما معا فمذهبه مذهب التسوية وميزانه في ذلك (الجودة والرداءة) وقد يحكم بتعديلها المنطق فالشعر عنده أربع أضرب:

١-ضرب ما حسن لفظه وجاد معناه

٢- ضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى

٣- ضرب من جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه

٤- ضرب منه تأخر معناه وتأخر لفظه

فهذه الأنواع الأربعة في معنى واحد، وقد كان يستغني بأحدهما، وليس من شك في أن هذه الشواهد التي ذكرها لكل نوع كفيلا بأن تكشف لنا عن حقيقة الكلمتين عنده، فإذا تركنا الضرب الأول الذي حسن لفظه وجاد معناه إلى الضرب الثاني الذي يحسن لفظه ويحلوا حتى إذا فتشته لم تجد وراءه معنى كبير.

بـ ابن رشيق:

اعتبر اللفظ والمعنى شيئا واحدا متلازمان ملازمة الروح للجسد، فلا يمكن الفصل بينهما ، إذ يقول "اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واحتل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنه عليه كما يعرض لبعض الأجسام ، من العرج والشلل والعور، وما أشبه ذلك من غير أن تذهب الروح ، وكذلك إن ضعف المعنى واحتل بعضه كان اللفظ من ذلك أوفر حظ كالذي يعرض للإجسام من المرض بمرض الأرواح ، فإن احتل المعنى، كله فسد، بقي اللفظ موازنا لا فائدة فيه وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلا أنه لا ينتفع به ، ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن احتل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى، لأن لا نجد روحا في غير جسم البتة". (أحمد أحمد بدوي ٢٠٠٤ : ٣٦٣) فتشبيه اللفظ بالجسم، والروح بالمعنى، يصور إلى مدى بعيد ما بين ركني الأدب من صلة لا تنفصم.

وهذه القضية اللفظ والمعنى عند ابن رشيق ، وقد حاول أن يقف موقفا معتدلا غير متعصب لأحدهما على الآخر ، وكان عرضه منهجيا اعتمد على طرق المناطقة والعلماء ، فهناك علاقة جدلية بينهما ، ما فتى ابن رشيق يؤكد عليها سواء في أقواله التي ينسبها لنفسه ويعبر فيها عن موقفه، أو فيما يقدمه من آراء لغيره من البلاغيين الذين سبقوهواتفق معهم ، أو لم يتفق، فقد ساق لنا مجموعة كبيرة من آراء النقاد وأقوالهم اختلفت معه في النظرة إلى قضية اللفظ والمعنى ، مما يدل على أنه كان ناقدا موضوعيا لا يتعصب لرأيه. وهو أنه يفضل اعتناء الألفاظ مع تجويد المعنى.

ج- ابن طباطبا

فيرى ان الصلة قوية ووثيقة بين المعاني والألفاظ ، فيرد حسن الشعر إلى انتظام عناصره ، وأن كل معنى من المعاني له من الألفاظ التي تشابهه وتمثله إذ يقول : "للمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزدادا حسنا في بعض المعارض دون بعض وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح البسه، وكم من صارم غضب قد انتضاه من وددت لو انه انتضاه فهزه ثم هو لم يضرب به، وكم من جوهر نفسية قد شينت بقرينة لها بعيدة منها ، فأوردت عن أخواتها المشكلات لها ...". (الطاهر حليس ١٩٨٦ : ٣٤٧)

اللفظ والمعنى ، قضية لا يجب أن تنقلب إلى جدلية فكرة فلسفية تظل رهينة عمل نظري لا جدوى من ورائه في عالم الواقع ، فابن طباطبا لا يجرفه هذا التيار اللامتناهي حول هذا الموضوع ، وإنما يتخذ فيه موقفا حاسما هو تأكيده للصلة الوثيقة بين المعاني والألفاظ. فيرد حسن الشعر إلى انتظام عناصره من خلال قوله "والكلام الذي لا معنى له كالجسم الذي لا روح فيه". (الطاهر حليس ١٩٨٦ : ٣٤٧)

فالقضية ينظر إليها من زاوية التوافق والتوازن بين اللفظ والمعنى ، إذ أن انعدام الروح من الجسد انعدام للحياة فيه، ولكن ابن طباطبا يتصور إمكانية التفاوت بينهما ، مما يهدد النص بالوهن والرداءة، وهذا إن كشف عن تصور كمال كل طرف في ذاته إلا ان الدعوة إلى إيفاء المشكلة حقها تخفف من حدة هذا التفاوت.

د- عبد القاهر الجرجاني

عبد القاهر الجرجاني من أهم البلاغيين الذين قضوا على ثنائية اللفظ والمعنى ، وقد بذل جهدا كبيرا لتثبيت هذه الوحدة ، ونحن نعلم أن فكرته الإعجاز لا تكون بالنسبة إلينا فكرة إلا إذا أمكن أن تصاغ بألفاظ ، حتى ولو كانت فكرة غير مسموعة، فنحن حين نفكر حتى ونحن في حالة النومفكر بالألفاظ وكذلك عندما تخرج الألفاظ من أفواهنا لا يمكن ان تكون مجرد أصوات لا معنى لها وإلا كنا مجانين.

لذلك لم يرضى عبد القاهر عن رأي من وقفوا عند حدود المعنى في عمومهم ، ليحكموا به على جمال الموضوع أو قبحه، مغفلين شأن الصياغة ، ويعقد عليه بما يدل على الباعث الديني الذي يدفع به ألا يغفل شأن اللفظ ومزيتة فهو يقول : "واعلم أنهم لم يبلغوا في إنكارهم هذا المذهب ما بلغوه إلا لأن الخطأ فيه عظيم ، وأنه يفضي بصاحبه إلى أن ينكر الإعجاز ، يبطل التحدي التحدي من حيث لا يشعر وذلك أنه كان العمل على ما يذهبون عليه من أن لايجب فضل ومزية إلا من جانب المعنى ، وحتى يكون قد قال حكمة وأدبا، واستخرج معنى غريبا أو تشبيها نادرا ، فقد وجب اطراح ما قاله الناس في الفصاحة والبلاغة وفي شان النظم والتأليف، وبطل أن يجب بالنظم وأن تدخله المزية وأن تتفاوت فيه المنازل ، وغذا بطل ذلك فقد بطل أن يكون الكلام معجزا".(هلال ٢٠٠٥ : ٢٦٩)

يأبى عبد القاهر أن يكون من أنصار اللفظ على نحو ما رآه من سبقوه ، إذ أن هؤلاء يجهدون أنفسهم في الكشف عن حسن الكلام في حسن ألفاظه ، ويذهبون في ذلك إلى تناسب المعاني التي تدل عليها الصياغة الأدبية، إذن فلا جمال في اللفظ إلا من خلال ما يؤديه من معان ، إذ يرى في هذا الموضوع " أن دليل الألفاظ على معناها تحكيمية وضعية، فلو أن واضع اللغة كان قد وضع ربح مكان ضرب، لما كان في ذلك

ما يؤدي إلى فساد فليس توالي الكلمات في النطق محتاجا إلى تفكير ولا مستوحبا لفضل إلا من جهة معناها وتناسقها ، هذا هو ما يستدعي الفكر وتتفاوت فيه العقول فلا فضيلة للألفاظ من حيث هي ألفاظ إلا في خلوها من الغرابة، ومن تنافر حروفها في النطق ، وهذه ميزة سلبية ضئيلة القيمة.

فمن هنا نجد أن عبد القاهر لم يرض بالرجوع إلى مجرد المعنى في تقويم الأدب ، ولم يرض كذلك بالوقوف عند حدود ألفاظ، وإنما رمى إلى ربط الألفاظ بدلالاتها في السياق من حيث تكوين الصورة الأدبية. فبفضله الخاص للعلاقة بين اللفظ والمعنى استطاع عبد القاهر ان ينظم المفاهيم المضطربة عن (اللفظ والمعنى) ووضع مفاهيم منظمة لكل منهما ، تنتظم على أساسها العلاقة بينهما وتأخذ صورا ومراتب مختلفة ، ويدلل الجرجاني محمدا ان مزية اللفظ تكون لمعناه فيقول: "ومن الصفات التي تجدهم يجرونها على اللفظ ثم لا تعترضك شبهة ، ولا يكون منك توقف أنها ليست له ولكن لمعناه فقولهم لا يكون الكلام يستحق راسم البلاغة حتى يشابه معناه لفظه، ولفظه معناه، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك.." (الجرجاني ١٩٩٤ : ٣٨)

فالميزة البلاغة تمكن في المعنى الذي تحدثه الألفاظ ، إذا ألقت على ضرب خاص من التأليف وترتيب معلوم ، وانكر أن يكون للفظ مزية في ذاته.

ومن ثم رأى أن اللفظ والمعنى متلازمان فالعملية الفكرية واحدة ، وفيها تتجلى الصورة الأدبية عن طريق صياغتها فإذا كانت العبرة بالألفاظ من خلال مواقعها في الجمل فليس ذلك لأنها المقصودة أولا بالفكر، إذ لا يعقل أن يقصد أولا إلى ترتيب المعاني في استقلال عن اللفظ ، فيري عبد القاهر أن الألفاظ تابعة للمعاني ، فلا يتصور أن يعرف المرء للفظ موضعا من غير أن يعرف معناه.

والذي يعن النظر إلى فكره النقدي يلحظ اهتمامه الزائد بهذه القضية ، ويظهر أن مرد هذا الاهتمام هو ارتباط هذه القضية بنظرية النظم كما تناولها في كتابه دلائل الإعجاز ، والتي تعد من أبداع ما أثمره فكره النقدي.

فدراسة لفكرة المعنى ودلالات الألفاظ والعلاقة بين اللفظ والمعنى ، ولمفهومه الجديد للغة قد قضى على كثير من الغموض الذي شاب فكرة الخلق الأدبي عند القدماء العرب ، وما كان من تأثيرها في الحكم على الشعر حكما يفصل بين لفظه ومعناه، ويرجع الفصل لكل منهما مستقلا، كما استطاعت فكرته عن المعنى أن تنزل من إيمان البلاغيين والنقاد بالشكل الخارجي للشعر ، فقد فتن الشعر والنقد بالصنعة الشكلية في الادب إلى الحد الذي خرج بالشعر عن مفهوم الصحيح.

فلم يكن هناك ما يثير النقد في الشعر غلا ما يتسم به من صفات خارجية تتصل بالألفاظ وجرسها وموسيقاها وجزالتها واستقامتها ، وصحتها وسلامتها ، ويسرف الناقد في هذه الناحية إسراف يعلي من مقام اللفظ على المعنى ، ويبالغ في الاهتمام بقيمة الشكل الخارجي .

فلذلك لا ننسى أن مفهومه الواسع لفكرة المعنى قد ساعد على نشأة المنهج اللغوي في دراسة الأدب لأول مرة في تاريخ النقد العربي ، ذلك المنهج الذي يقوم على أساس أن لكل بيت من الشعر ولكل جملة وضعها الخاص وصفاتها الناشئة من نظمها وسياقها.

٢,٧ علاقة اللفظ والمعنى

لقد شغلت هذه قضية (اللفظ والمعنى) البلاغيين بعدد كبير، فهؤلاء قد بحثوا العلاقة بينهما اللفظ ومعناه، ونوع العلاقة، والضوابط المتحكم بها، ولاشك أن أهم مواقف البلاغيين في دراستهم لهذه العلاقة هي كانت مبحث الحقيقة والمجاز، فقد فرّق البلاغيون بين لونين متقابلين من الكلام مناسباً من الاستعمال العادي للفظ أو الكلمة وهو الحقيقة، والاستعمال غير العادي لها وهو المجاز، وهذا كما عبر عنه الدكتور محمد الحفناوي بقوله "إن الكلمات المستعملة في تعبير ما إما أن تستخدم في دلالاتها الموضوعية لها في اللغة فيكون الأسلوب من قبيل الحقيقة، وإما أن ينحرف المستعمل لتلك الكلمات عن تلك الدلالة الوضعية إلى دلالة أخرى يراها أكثر تمثيلاً لمعناه، فيكون الأسلوب حينئذ من قبيل المجاز" (الحفناوي ١٩٩٣: ٣٥). فإذا "قلنا (جاء الأسد) وقصدنا الدلالة على الحيوان الذي اصطلح على تسميته بالأسد، فإن العلاقة بين لفظ الأسد والحيوان، أو بين اللفظ ومعناه علاقة مواضعة، أما إذا قلنا (جاء الأسد) وكنا نقصد وصف شجاعة (زيد) أو (عمرو)، فإن لفظ (أسد) يدل هنا على المجاز" (الجرجاني ١٩٤٥: ٣٠٣-٣٠٤). والمجاز كما يعرفه الجرجاني (١٩٤٥: ٣٠٤) "كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز، وإن شئت قلت كل كلمة جزت بها ما وقعت له في وضع الواضع، إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا لملاحظة بين ما تجوز بها إليه، وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز".

والمجاز يعتبر في علم البلاغة هي وسيلة فنية يلتجأ إليها تحرراً من الضيق اللفظي، واتساعاً في المعنى وتعميقه، وإلباساً حلة جديدة غير التي عرفها عند التعبير الحقيقي، لذلك حظي بعناية فائقة من لدن العلماء

القدامى من نقاد وبلاغيين لما له من خصائص فنية، أهمها تحميل اللفظ معاني مستحدثة لا يستوعبها اللفظ نفسه في أصل وضعه الحقيقي. ولذلك نجد البلاغيين يفرّقون بين المعنى الأول والمعنى الثاني للألفاظ، فالمعنى الأول هي التي دلالات اللغة قبل أن تتطور، أو قبل تصرف منه النقاد في استعمالها، وأما المعنى الثاني فيرتبط بالحالات النفسية والاجتماعية التي يعيش المجتمع أو بعض أفرادها فيها.

وكما بحث البلاغيون في نوع العلاقة التي تربط اللفظ بمعناه، بحثوا كذلك في الألفاظ وأحوالها والمعاني وهيئتها، وحددوا أوصافا للمعنى وأخرى للفظ. ولم يعرض لما ينبغي توفير لكل منهما من أسباب الجودة ومظاهر الإتقان، وتعتبر ما نصّ (بشر بن المعتمر) المعتزلي من النصوص البلاغية الأوائل التي عالجت قضية اللفظ والمعنى وحددت أوصافا لكل اللفظ والمعنى، ومما جاء في هذه الصحيفة "وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليلمس لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف للفظ الشريف، ومن حقهما أن تصوفهما كما يفسدهما ويهجنهما...فكن في ثلاث منازل، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا، ويكون معنك ظاهرا مكشوفاً، وقريبا معروفاً، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت". (الجاحظ ١٩٩٠ : ١٣٦/١)

وما استفدناه من كلام (بشر بن المعتمر) و(أبي هلال العسكري) وغيرهما من البلاغيين في هذه القضية، أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال لا تتم إلا إذا كان المتكلم وضعها في حسبانه الموضوع أو الغرض الذي يتكلم فيه، بحيث يأتي كلامه مسائرا له ومتلائما معه، كما وضع المخاطب في حسبانه الذي يتوجه كلامه إليه، فيكفي تعبيره اللغوي وفق الحال التي هذا المخاطب عليها، من علم بالموضوع أو جهل به أو انكره له.

ويمكن القول بمفهومهم السابق في رعاية المطابقة لمقتضى الحال قد أغفلوا البلاغيين مصدر الكلام نفسه، وهو المتكلم وما يمكن أن تضطرب أعماقه به من مشاعره المتباينة وأحاسيسه المعقدة تستحوذ عليه ولا يستطيع الإفلات منها، فيأتي تعبيراً عن ذاته من كلامه ، وتصويراً لمشاعر كامنة في باطنه، والواقع أنه لا نستطيع أن نغفل المتكلم أو لحساب المخاطب أو الموضوع .

٢,٨ خلاصة

وقد أدرك العلماء على نحو جادة قوة الترابط بين اللفظ والمعنى ، وأدركوا قيمة المعنى في التعبيرات ، ومكانة الألفاظ حين تنضمها إلى بعضها، فالمعنى لا يقوم بدون لفظ، كما لا تقوم الروح بدون الجسد، فهما متلازمان تلازم الروح والجسد في أشخاص معينة يقول العتايي "الألفاظ أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا، أو أخرت منها مقدما، أفسدت الصورة وغيّرت المعنى، كما لو حول رأس إلى موضع يد، أو يد إلى موضع رجل، ولتحولت الخلقة وتغيرت الحلية" . (العسكري ١٩٧١ : ١٧٩)

فيتضح إذن من خلال المناقشات، أن طبيعة اللفظ والمعنى هو التلازم، فلا وجود للفظ بدون معنى، ولا وجود لمعنى بدون لفظ. فإذا كان المعنى صورة ذهنية فقد وضع بإزائه لفظ هو القصد من تلك الصورة أو هويتها موافقة بما عند عبد القاهر الجرجاني.

ولأهمية هذه القضية في الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت محط اهتمام الباحثين والدارسين البلاغيين على اختلاف بيناتهم ومعارفهم، فتعددت حولها النظريات وتضاربت حول الآراء، واختلفت المناهج والمصطلحات من حقل وحقل آخر. ويمكن أن نقول بأن الترابط والتداخل الذي تتسم به الثقافة العربية الإسلامية، جعل من هذه القضية إرثاً مشتركاً بين جميع البيئات المعرفية، لأن اهتمامنا بها كان يستهدف أساساً خدمة النص القرآني، ودراسته والتحليل حوله وعنه، فكان لكل البيئة نصيبها من بحث هذه القضية ومعالجتها بما يتناسب وطبيعة المادة الموصوفة.

وإن كانت هذه القضية قد عرفت تنوعاً وتوسعاً في الدراسة والبحث، فوجودها داخل حقول المعرفة المتنوعة، ومعالجتها موافقة لمناهج ونظريات متباينة لم يتح لهذه القضية أن تصبح زوجاً اصطلاحياً مفهوماً بحيث "يغدو كل طرف من طرفيها دالاً على تصور محدد ودالاً على تصور لازم لعلاقتها بالآخر، أو أن يكون حضور هذا الزوج بطرفيه مقترناً بتصور محدد لطبيعة العلاقة بينهما، سواء داخل المجال المعرفة المختلفة، أو داخل مجال واحد". (طارق النعمان ١٩٩٤: ٧) فقد تناول البلاغيون و الأدباء وتعرض لهذه القضية من زوايتها الخاصة، وتذهب فيها فريق، وتنظم حولها آراء ونظريات، وإن كان الأساس المرتكزة فيه جميع هاته البيئات يكاد يكون أساساً واحداً، وهو خدمة النص القرآني حيث هذه الغاية المحور الأساس لمسار جميع العلوم العربية والإسلامية.

وفي تقديري لهذه القضية فإن الاكتشاف عما توصلت إليه هذه البيئات، رغم ما بينها من تداخل وتشابك من إنجازات مرتبطة بقضية اللفظ والمعنى، يعد خطوة أساسية للتكشيف عن الأساس النظري المتكامل لهذه القضية.